

المنهج الأسلوبي

مفهوم الأسلوب:

لعله من المهم قبل تعريف الأسلوبية باعتبارها علم الأسلوب التعريف بهذا الأخير أولاً. والواقع أن مصطلح أسلوب ليس بجديد لا في القواميس و المعاجم اللغوية و لا في الدراسات التي عنت بفن الأدب. قال ابن منظور في لسانه " يقال للسطر من التخييل أسلوب ، و كل طريق ممتد فهو أسلوب . قال : الأسلوب الطريق و الوجه و المذهب . . و يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه ، و السلب ضرب من الشجر ينبت متناسقا " (1) الأسلوب إذا هو الطريقة أو المذهب في السير و في الكلام ، و في التخييل و لعل خاصيته الأساسية هي التناسق . و إذا ذهبنا إلى المؤلفات النقدية و البلاغية العربية القديمة سنجدها حافلة بالحديث عن مصطلح الأسلوب. و لعل أقدم الدراسات التي استخدموا هذا المصطلح كان الباقلاني في كتابه "إعجاز القرآن الكريم" أين أوضح أن الأسلوب هو الطريقة الخاصة في الكتابة حيث لكل شاعر أو كاتب طريقة في الإبداع يعرف بها و الأسلوب مثل الخط فكما يتعرف الإنسان إلى خطه بين مجموعة خطوط يتعرف القارئ الحذق إلى قصيدة شاعر ما من خلال أسلوبها . و الأسلوب برأي الباقلاني يختلف باختلاف الموضوع المطروق فأسلوب الشاعر في المدح غير أسلوبه في الغزل . و وحده أسلوب الخطاب القرآني من بين مختلف التأليف متفرد بطريقة واحدة لا يظهر عليها التفاوت رغم اختلاف السياق و الموضوع و

(1) - ابن منظور : لسان العرب ، ص474.

أسباب النزول و في ذلك برهان كبير على إعجازه . و يعود سبب اختلاف الأساليب بين الناس لاختلاف طباعهم العميقة (2) أما عبد القاهر الجرجاني فيعرف الأسلوب بقوله " ... و الأسلوب الضرب من النظم و الطريقة فيه" (3) و بطبيعة الحال تلعب طريقة النظم دورا بالغا في التأثير الدلالي. أما حديثا فيعرف الأسلوب بأنه " وجه للمفوض ينتج عن اختيار أدوات التعبير و تحده طبيعة المتكلم أو الكاتب و مقاصده" (4) و يمكن القول بعبارة أخرى أن فن الكاتب هو استخدام أدوات التعبير استخداما واعيا بالجمالية الأدبية بل قاصدا لتحقيقها ما يجعل محورا للاختيار و التوزيع في العمل الفني محورين نشيطين جدا، ولا شك أن الأسلوب يعكس مزاج صاحبه و تجربته الثقافية الخاصة، إنه "شيء الكاتب ، هو روعته و سجنه ، إنه عزلته . و لأن الأسلوب غير مبال بالمجتمع ، و لأنه مسعى مغلق للشخص فإنه لا يكون فقط نتاج اختيار أو تفكير في الأدب ، إنه الجانب الخصوصي في الطقوسي" (5) حسب رولان بارث الذي اعتبر الأسلوب هو فن التصرف باللغة من داخل اللغة إذا أراد الكاتب تجاوز سلطة / لعنة الأسلوب . و الأسلوب هو أيضا " طريقة في الكتابة ، و هو من جهة أخرى طريقة في الكتابة لكاتب من الكتاب ، و لجنس من الأجناس ، و لعصر من العصور " (6) كما يذهب إى ذلك بيار غيرود في كتابه " الأسلوبية".

-مفهوم الأسلوبية stylistique: الأسلوبية هي العلم الذي يدرس الأسلوب كما أشرنا سابقا بالاتكاء على المعارف اللغوية التي أمدتنا بها اللسانيات . إنها " علم لغوي حديث

(2) -إبراهيم خليل : الأسلوبية و نظرية النص ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، لبنان ، ط 1 1997 ، ص 26-29 .

(3) - عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، 1981 ، ص 361.

(4) - عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، الدار العربية للكتاب ، تونس- ليبيا ، ط 3 ، ص 88.

(5) -رولان بارث : الدرجة الصفر للكتابة ، ترجمة محمد برادة ، الشركة المغربية للنشر المتحدين ، الرباط المغرب ، ص 35.

(6) - بيير غيرو : الأسلوبية ، ترجمة منذر عياشي ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، سوريا ، ص 09.

يبحث في الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب العادي أو الأدبي خصائصه التعبيرية ،
و الشعرية فتميزه عن غيره"⁽⁷⁾ و تعد بهذا حلقة الوصل بين اللسانيات و النقد
الأدبي .و الأسلوبية في معجم اللسانيات هي الدراسة العلمية للأسلوب في الأعمال
الأدبية و هي عند عبد السلام المسدي " البحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم
الأسلوب"⁽⁸⁾ و لعل التشديد على فكرة العلمية واضح في كل المفاهيم التي قدمت لهذا
المصطلح ، و هذا ليس غريبا عن العصر الذي نشأت فيه الأسلوبية ، عصر يبحث في
التعليل العلمي لكل الظواهر بما فيها ظاهرة الأدب و النقد الأدبي هذا من جهة و من
جهة أخرى فاعتماد المنهج الأسلوبي المعطيات اللغوية و اللسانية منطلقا له يجعل
تحقق الموضوعية عبره أمرا ممكنا إلى حد بعيد ، و لعل هذا ما يميزها عن البلاغة ،
فكثيرا ما ترددت عبارة الأسلوبية هي الوريث الشرعي للبلاغة بين الذين انشغلوا
بالدرس الأسلوبي لكن الفرق الجوهرى بينهما هو كون البلاغة معيارية هدفها تعليم
الأفضل من القول بينما الثانية علمية تصف الوقائع و تصنفها بشكل موضوعي . و
الواقع أن نشأة الأسلوبية تعود إلى بدايات القرن العشرين مع شارل بالي (1865-
1947)و قد كان تلميذا لدوسوسير ، و بعد ذلك بدأ الدرس الأسلوبي يتطور على يد نقاد
و ألسنيين متخذا اتجاهات متعددة بتسميات لا حصر لها و يمكننا تلخيصها فيما يأتي :
- الأسلوبية التعبيرية : و رائدها هو شارل بالي الذي وقف عند قضية القيم البلاغية و
الأسلوبية مؤكدا على أنها لا تتعلق بالقيم الثابتة كما أنها لا تسكن فقط لغة الأقدمين كما
كان يُعتقد بل تكمن في المحتوى العاطفي للغة . و هذا يحصل في اللغة المكتوبة كما

(7) - عدنان ابن ذريل : اللغة و الأسلوب ، دار مجدلاوي للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن ، ط2 2006 ن ص 17.

(8) - عبد السلام المسدي : الاسلوبية و الأسلوب ، ص56.

يحصل في اللغة المنطوقة ، و على الأسلوبى أن يتتبع وقائع التعبير اللغوي من حيث هو مضمون وجداني و الآثار المرافقة لذلك ، فالتعبير اللغوي هو مجموعة من السياقات الحية و التغيرات النابضة الغنية بالقيم الأسلوبية التي يسعى المؤلف من خلالها إلى جذب اهتمام القارئ.⁽⁹⁾

-الأسلوبية البنيوية : يمثلها ميكائيل ريفاتير الذي ارتبطت أسلوبيته بمسألة الانزياح ، على اعتبار أن الأسلوب هو انزياح عن الأعراف الكلامية السائدة ، فالشاعر أو الكاتب هو فرد "يتكلم" في مقابل جماعة "تتواصل" . و يرى ريفاتير أن بنية النص تقوم على مستويين " أحدهما يمثل النسيج الطبيعي ، و ثانيهما يزدوج معه و يمثل مقدار الخروج عن حده " ⁽¹⁰⁾ و لتوضيح ذلك يعرف ريفاتير السياق الأسلوبى بأنه " نموذج لسانی مقطوع بعنصر غير متوقع و التناقض الناتج عن هذا التداخل هو المنبه الأسلوب " ⁽¹¹⁾ و من خلال هذا نلاحظ تركيز ريفاتير على مسألة الجمالية و ظروف تحققها المرهونة بعنصر المفاجأة الأسلوبية . يمثل هذه الأسلوبية أيضا الناقد الفرنسي جون كوهين الذي استثمر بدوره ثنائية اللغة / الكلام ليعمق مفهوم الانزياح معتبرا أن جوهر الخطاب الأدبي يكمن في أسلوبه المنحرف عن العادة ، و الانزياح الأسلوبى يحصل في جميع الخطابات بما فيها الخطاب اليومي لكن أكبر درجات الانزياح هي ما نجده في الشعر و في هذا السياق يقول جون كوهين .⁽¹²⁾

⁽⁹⁾ -عدنان بن ذريل : اللغة و الاسلوب ، ص136.

ميكائيل ريفاتير : معيير تحليل الأسلوب ، ترجمة وتقديم حميد لحميداني ، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء ، المغرب، ط 1993، ص56.

⁽¹¹⁾ -نفسه : ص54.

⁽¹²⁾ -Voir Jhon Cohen : Structure du langage poétique ,nouvelle bibliothèque scientifique , flammariion , Paris ,France , 1966.

- الأسلوبية النفسية : و رائدها هو الألماني "ليو سبيترز" (1867-1960) الذي اهتم
بالأسلوب من حيث علاقته بنفسية صاحبه ، فالأسلوب يصطبغ بخصوصية الذات
الكاتبة ، و كل ذات متفردة بطبيعة الحال ، ما يجعل سبيترز يجنح نحو تلمس الجانب
النفسي للذات الكاتبة من خلال ما أنتجته من كتابة معينة. و يؤكد سبيترز على أن نقطة
الانطلاق في الدراسة الأسلوبية لغوية حيث يتم رصد المظاهر الأسلوبية المختلفة من
خلال كل أعمال المؤلف ، و هي مظاهر تعكس شخصية صاحب العمل.

- الأسلوبية الإحصائية : رائد هذا الاتجاه هو "كراهم هاف" و بوزيمان الذي انشغل
بدراسة خصائص الأسلوب في الأدب الألماني. و هذه الأسلوبية كما هو واضح من
اسمها تعتمد الإحصاء الرياضي طريقة لولوج عوالم النصوص الأدبية بغية الوصول
إلى الموضوعية التامة من خلال تقديم بيانات دقيقة للسمات اللغوية ، التركيبية و
الأسلوبية التي تميز النص مثل استخدام مفردات معجمية معينة و تتبع طبيعة الجمل
(من اسمية و فعلية، بسيطة و مركبة ، خبرية و إنشائية ...)، و صيغ الكلمات
المستعملة (صفات ، ظروف ، أفعال ن حروف ...) و تكرار هذه السمات اللغوية
بنسب عالية يتحول إلى خواص أسلوبية تسم كاتب ما أو شاعر ما .⁽¹³⁾

مستويات التحليل الأسلوبي :

يحاول التحليل الأسلوبي للخطابات أن يحيط بها من جميع جوانبها اللغوية و الدلالية ،
و لأجل ذلك يتناول النص من خلال مستوياته الأربعة (المستوى الصوتي ، المستوى
الصرفي، المستوى النحوي ، المستوى الدلالي) .

⁽¹³⁾ - ينظر إبراهيم خليل : النقد الادبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، ص 153-156.

-المستوى الصوتي : تتكون كل كلمة من مجموعة أحرف و كل حرف هو صوت و حركة وبالاعتماد على هذه الوحدة الأساسية يمكن دراسة الجملة و النص دراسة صوتية بملاحظة طبيعة الأصوات التي تهيمن على الجملة أو المقطع و التي يعمل التكرار على ترسيخ وظيفتها . و التكرار أنواع منها تكرار الحروف كما كان سائدا في القصيدة الكلاسيكية ، تكرار المقطع الصوتي بأكمله ، تكرار الكلمة ، تكرار الجملة ، تكرار الشطر أو السطر الشعري بأكمله ...إلخ و كل أنواع التكرار تعطي إيقاعا صوتيا خاصا بالنص. كما يقوم الدارس في المستوى الصوتي بدراسة النبر . و النبر هو الضغط على مقطع معين من الكلمة يجعله أكثر بروزا أثناء السمع في العربية نوعان : نبر صرفي يتعلق بالميزان الصرفي حيث صيغة فاعل مثلا يقع النبر فيها على الفاء ، و النوع الثاني هو نبر السياق و يقع على الجمل لا الكلمات ، و يسمى أيضا بالنبر الدلالي. و تهتم الدراسة الصوتية أيضا بقضية التنغيم ، و التنغيم " مصطلح صوتي يدل على الارتفاع و الانخفاض في درجة الجهر في الكلام " و لعل لكل هذه القضايا الصوتية أثرها على المعنى ، فهيمنة أصوات بعينها أو تكرار ما أو التنغيم الهابط أو التنغيم الصاعد على نص شعري له بعده الدلالي بالتأكيد. و في الغالب يلجأ الدارس إلى الإحصاء في مثل هذه المستويات من الدراسة لضبط النتائج أكثر.

-المستوى الصرفي : يتتبع الدارس الأسلوب في هذا المستوى مختلف الصيغ الصرفية الواردة في النص و دلالاتها كأوزان الأفعال و المصادر و المشتقات ، كما يلاحظ الصيغ الغالبة في الأداء الكلامي داخل النص ، و دلالة ذلك .

- المستوى النحوي : يتجاوز الدارس في المستوى النحوي الكلمة إلى الجملة فيدرس طبيعة الجمل المستعملة : هل هي جمل اسمية أم فعلية أم أن الكاتب زواج فيما بينها معللا دلالة كل استعمال ، كما يقف الدارس عند مكونات الجملة من حيث الترتيب المعهود أو التقديم و التأخير أو الحذف كما في حالة المبتدأ و الخبر ، و دور كل ذلك في تحوير الدلالة خاصة عندما يتعلق الأمر بالخطاب الشعري الذي يعتمد كثيرا إلى هذا النوع من التغييرات البنائية ، كما يعتمد إلى إفساد " النحو " الضمني عبر الانزياح فتتأسس علاقات إسنادية جديدة جديرة بالتحليل لأنها مصدر شعرية الخطاب.

-المستوى الدلالي : و هو في الواقع محصلة العلاقات بين كل مستويات النص ، و يذهب الدارس في هذا المستوى إلى دراسة علاقات الكلمات فيما بينها و مسألة الحقول الدلالية حيث تستفيد الأسلوبية هنا من علم الدلالة ، و يقسم النقاد تلك الحقول وفق منطلقات مختلفة (حقول مبنية على علاقة التقابل أو التضاد ، حقول مبنية على علاقة التدرج و التعاقب ، الحقول المحسوسة ، الحقول التجريدية...إلخ) .

-نموذج تطبيقي في التحليل الأسلوبي:

يقول نزار قباني:

حين وّزع الله النساء على الرجال

وأعطاني إياك

شعرت أنه انحاز بصورة مكشوفة إلى

وخالف كل الكتب السماوية التي ألفها

فأعطاني النبيذ، وأعطاهم الحنطة

ألبسني الحرير وألبسهم القطن

أهدى إلي الوردة

وأهداهم الغصن (14)

نلاحظ هنا أن الانزياح لا يحدث نتيجة خرق قانون اللغة (في مستواه

التركيبية)و إذ أن الجمل تتموضع بشكل سليم نحويا ،فإذا كان فعل التوزيع فعلا إنسانيا

محسوسا،فقد ألفنا في الواقع نسبته إلى الله-على سبيل المجاز- فصار من قبيل المجاز

الميت،لكن الانزياح أو الخلطة تأتي من " بلاغة" التقريرية , وتحدث عبر فعل

التجسيد. لقد حول الشاعر الله من فكرة مجردة إلى شيء محسوس ، إلى عامل في

مصنع للنساء ، أو مزارع في حقول الحسناوات ، يجمع الثمار ويوزعها ، ويضخم

الشاعر حدة الانزياح عندما يضع نفسه في خانة المحظوظين الذين يتحول الله معهم إلى

" شاعر" غير عادل.

إن إسناد فعل الانحياز إلى الله إسناد غير طبيعي ، إذ أن الطبيعة تقتضي أن الإنسان

هو الذي يتحيز ويخرق قوانين العدل ، لكن في هذا التركيب حتى الله المجرد مؤلف

كتب العدل يخون أفكاره وقناعاته ليرضي رجلا شاعرا، عاشقا ولا يقف الأمر عند هذا

(14)- نزار قباني : الأعمال الشعرية الكاملة، منشورات نزار قباني ، بيروت ، لبنان ، ص 402.

الحد بل إن نزار قباني يواصل إفساد العلاقة الطبيعية بين الفاعل وفعله ، ناقلا الفعل
الناسوتي إلى اللاهوتي ، قائلا:

حين عرفني الله عليك

وذهب إلى بيته

فكرت... أن أكتب له رسالة

على ورق أزرق

وأضعها في مغلف أزرق

وأغسلها بالدمع الأزرق

أبدؤها بعبارة: يا صديقي

كنت أريد أن أشكره لأنه اختارك لي (15)

إن الشاعر هنا، وبإسناده فعل " عرفني " إلى الله ، ينزل هذا الأخير من عليائه ليخلقه
على شاكلة إنسان لطيف ، يمارس فعل التعارف والصدقة والمحبة ، وتعبير الشاعر
كان سيحتفظ بمعقوليته قليلا لو أنه اكتفى به ولم يبالغ في التجسيد الذي أظهر الله في
صورة إنسان يمتلك بيتا يعود إليه آخر النهار ، كما يتلقى رسائل تخص العشاق وحدهم.
وإذا حاولنا قراءة دلالات هذه الخلطة ، نلاحظ أن هول المصادفة التي جمعت الراوي
بهذه المرأة الشهية "كالنبيد" الجميلة " كالوردة" الناعمة " كالحرير" جعله يلغي

المسافة الفاصلة بينه وبين الله ، فاختلفت في - خياله- صورة الله الكريم ، الغائب ماديا بصورة الصديق الحميم، المتفهم، الحاضر ماديا ومعنويا، فلم يحرم نفسه متعة التقريب بين عالم إنساني مليء بالرغبات المشروعة و اللامشروعة، وبين عالم إلهي مثالي رحيم إلى حد الصداقة والتفهم ، وذلك عبر إبداع مستوى لغوي ، ينطلق من اللسان ليختلف عنه، ومن جاهز الحياة / التصورات ، ليني رؤى أخرى.

إن المدلول الأول للعبارات " حين وزع الله" و" انحاز...و" عرفني .." و" ذهب إلى بيته"، بقدر ما يوحي بيومية مثل هذه الأفعال ، يثيرا لدهشة لعدم الاتساق بينها وبين فاعلها، كما يوحي بنوع من العبث اتجاه "المقدس" بإدخاله ضمن العادات اليومية مما يذكر بفكره " الله" عند اليهود ، غير أن المدلول الثاني لمثل هذه المتواليات يخرجها - كما أشرنا- من دائرة الغرابة والعبث لتؤكد في النهاية على استثنائية الموقف ككل ، إلى حد الإيمان المطلق " بصداقة الله" ، وتتقدم بذلك كتأسيس جمالي غني بالتصورات، خارجا ليس فقط على سلطوية اللغة بل على سلطوية العلاقة بين الخالق ومخلوقه، وجعلها علاقة محبة وتواصل أكثر منها علاقة عبودية وانقياد ، وسيطرة. ولهذا يمكن القول أن الانكسارات التي تحدث على مستوى العملية الإسنادية تؤدي إلى انكسارات دلالية، فيتحول " الدال اللفظي من أن يكون مجرد طرف في العلاقات السياقية على مستوى النظم إلى أن يثير الانتباه إلى طبيعته الذاتية ، إلى حقيقة كونه دالا" ⁽¹⁶⁾ يمتلك قيمته الخاصة جدا.

(16)- ينظر حامد أبو زيد : إشكاليات القراءة و آليات التأويل ، ص 187.

